تجارب عملية في القيادة العلمية

كتبها/ عبد الحي يوسف

بسم الله الرحمن الرحيم

تجارب معاصرة في القيادة العلمية

د.عبد الحي يوسف

(أستاذ مساعد بقسم الثقافة الإسلامية بجامعة الخرطوم، السودان)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله الأمين، وعلى آله وصحبه الطيّبين الطاهرين، ومن تبعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدين.

وبعد، فإنَّ العلماءَ هم الجماعةُ والأُمَّةُ الوَسَطُ والطائفةُ المنصُورة، كما تَرْجَمَ البخاري رحمه الله في كتابِ (الاعتصام بالكتاب والسنَّة)، باب: (قوله تعالى: {وكذلك جعَلْناكم أُمَّةً وَسَطاً}[1] وما أمَرَ النبيُّ ﷺ بِلُزُومِ الجماعة، وهم أهلُ العِلْم). وروى رحمه الله في باب: [قول النبيّ ﷺ: (لا تزالُ طائفةٌ من أُمَّتِي ظاهِرين على الحق) وهم أهلُ العِلم] عن المغيرة بن شعبة، عن النبي ﷺ قال: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين، حتى يأتيَهم أمر الله وهم ظاهرون).[2]

فلا خيرَ أعظم من العلمِ والفقهِ في الدِّين، كما روى معاويةُ رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (مَن يُرِد الله به خيراً يُفَقِّهْه في الدِّين).[3] وروى عبدُ الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا حَسَدَ إلا في اثنتَين: رجل آتاه الله مالاً فسلَّطَه على هَلَكَتِه في الحق، وآخر آتاه الله حِكمة، فهو يقضي بها ويُعلِّمها).[4]

وقد بيَّنَ النبيُّ ﷺ أنَّ بقاءَ العِلْمِ ببقاءِ العُلماءِ وذهابَه بِذَهابِهم، كما روى البخاري رَحِمَه الله في كتابِ (العِلْم) باب (كيف يُقبَضُ العِلم؟) أنَّ عمرَ بن عبد العزيز كتبَ إلى أبي بكر بن

---

1 البقرة 143.

2 صحيح البخاري، حديث 6881، [ر: 3441]، كتاب الاعتصام.

3 صحيح البخاري، حديث 6882 [ر: 71].

4 صحيح البخاري، حديث 6886. رواه البخاري رحمه الله في باب: (ما جاء في اجتهاد القضاء بما أنزل الله تعالى؛ لقوله تعالى: {ومَن لم يحكُمْ بما أنزَلَ الله فأولئك هم الظالمون} ومدح النبي ﷺ صاحب الحكمة حين يقضي بها ويعلِّمها. ولا يتكلَّف مِن قِبَلِه، ومشاورة الخلفاء وسؤالهم أهل العلم).

حزم: (انظُرْ ما كان من حديثِ رسولِ الله ﷺ فاكْتُبْه؛ فإني خِفتُ دُرُوسَ العِلمِ[5] وذهابَ العلماء)، وروى عن عبد الله بن عَمْرو رضي الله عنهما قال: سَمِعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إنَّ الله لا يَقبِضُ العِلمَ انتِزاعاً يَنتَزِعُه من العِبادِ؛ ولكنْ يَقبِضُ العِلمَ بِقَبْضِ العُلماء؛ حتى إذا لم يُبْقِ عالِماً اتخَذَ الناسُ رؤوسا جُهَّالا فسُئلُوا فأفتَوْا بِغَيرِ عِلْمٍ؛ فَضَلُّوا وأضَلُّوا).[6] ورواه كذلك في كتاب (الاعتصام بالكتاب والسُّنة) باب [ما يُذكَرُ مِن ذمِّ الرأيِ وتكلُّفِ القِياس (ولا تَقْفُ) لا تقُلْ (ما ليس لك به عِلم)] عن عُروة ﷺ قال: حجَّ علينا عبد الله بن عمرو فسمِعتُه يقول: سمِعتُ النبيَّ ﷺ يقول: (إنَّ الله لا يَنزِعُ العِلمَ بعد أنْ أعْطاهُمُوه انتِزاعا؛ ولكنْ يَنتزِعُه منهم مع قبضِ العُلماء بِعِلْمِهم؛ فيبقى ناسٌ جُهَّالٌ يُستَفْتَوْن؛ فيُفتُون برأيِهم؛ فيَضِلُّون ويُضِلُّون).[7] وفي لفظٍ لمسلم: (إنَّ الله لا ينتَزِعُ العِلمَ من الناس انتزاعاً؛ ولكن يقبضُ العلماء؛ فيَرفَعُ العِلمَ معهم، ويُبقِي في الناسِ رؤوساً جُهَّالا يُفتُونهم بغيرِ عِلْم؛ فيَضِلُّون ويُضِلُّون).[8]

فكيف نستفيدُ من تجارِبِ علمائنا ونهتدي بها في حياتنا؟ هذا ما نُحاوِلُ بيانَه في هذه الورقة (تجارب معاصرة في القيادة العلمية)، وهي تتناولُ المطالِبَ التالية:

أولا: لماذا لا تُفرِزُ الأُمَّة قيادةً عِلميةً حقيقية؟

ثانيا: نماذج عِلمية مُعاصِرة.

ثالثا: الأُمة وإشكالات غيابِ الرُّموز العلمية.

رابعا: الأُمة وآليات صِناعة الرُّموز والقادة.

والله الموفِّقُ، لا إلهَ غيرُه، ولا ربَّ سواه.

⊥ المطلب الأول: لماذا لا تُفرِزُ الأمة قياداتٍ عِلمية حقيقية؟

---

5 أي ضَياعَه.

6 صحيح البخاري50/1، حديث100. وصحيح مسلم 2058/4، حديث 2673، كتاب (العلم) باب (رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان).

7 صحيح البخاري2665/6، حديث 6877.

8 قال ابنُ حَجر رَحِمَه الله: "في هذا الحديثِ: الحَثُّ على حِفظِ العلم، والتحذيرُ من ترئيسِ الجَهَلة، وفيه: أنَّ الفتوى هي الرِّياسةُ الحقيقية، وذَمُّ مَن يُقْدِمُ عليها بغيرِ عِلم". فتح الباري195/1.

للإجابة عن هذا السؤال نحتاج إلى بيانِ الأسباب السياسِية والأمنِية من ناحية، والأسباب الإدارية والإعلامية من ناحية أخرى.

أولا: الأسباب السياسِية والأمنِية:

1) المضايَقاتُ الأمنِية التي تُسَلِّطُها بعضُ الأنظمةِ الحاكِمة على العامِلِين في حقلِ الدعوة والتدريس في المساجد ومنع المنظمات الإسلامية (نموذج تونس مثلا..)؛ مما يجعل وظيفةَ التربية والتعليم مُهِمَّةً شاقةً، كما أنَّ هذا الوَضعَ الأمنِي يَحْرِمُ كثيراً من طَلَبةِ العلم من الاتصالِ الوَثِيقِ بأهلِ العِلم والانتِفاعِ بهم.

2) حَذَرُ كثيرٍ من العلماء وتوجُّسُهم من إثارةِ الرِّيبة والشُّكوك من حولِهم؛ أو خوفُهم من انقِطاعِ دعوتِهم إذا هم توجَّهوا إلى إعدادِ قياداتٍ بديلةٍ للمجتمع؛ مما جعلَ تأثيرَ العلماءِ محدُوداً.

3) قِلَّةُ الوَعيِ بضرورةِ الإصلاحِ السياسي والتغييرِ الاجتماعي الواسِع. فما زال كثيرٌ من العامِلِين للدعوة ـ على سَعَةِ علمِهم الشرعي ـ مُتردِّدين في المساهَمة المنضبِطة في الإصلاحِ السياسي والتنمية الاجتماعية.

4) الانتِماءُ الضيِّق إلى الجماعاتِ وقِلةُ الهمِّ الإسلامي العام، والانغِلاق على العمل لمصلحةِ جماعةٍ مُعيَّنة، فالملاحَظ أنَّ بعضَ الدُّعاة لم يتخلَّصوا من أسْرِ الجماعةِ والعملِ التنظيمي، كما أنَّ بعضَ العلماء يقصرون اهتمامهم على قلةٍ من الطلبة ولا يَسْعَوْن إلى نَشرِ نُورِ العلمِ بين عامة الناس، مُستَفِيدِين من سَعَةِ مؤسَّساتِ الدولة وفئاتِ المجتمَع وشدةِ حاجةِ الناس. والله المستعان.

5) عَدَمُ استِقلاليةِ بعضِ العلماء، ووُقوعُهم في طَرَفَيْ الموافَقة أو المعارَضة السياسية. فمَن وافَقَ رضِيَ وتابعَ واستغنَى غالباً عن إقامةِ مؤسَّساتٍ تعليميةٍ واجتماعيةٍ حُرَّةٍ وفاعِلة، وقنع بالموجود. ومن عارضَ لم يسلَمْ له عَملٌ تغيِيريٌّ كبيرٌ. والحكمةُ تتمثلُ في مُراعاةِ التوازُن في الإصلاح وحُسنِ التناصُح والتعليمِ، وتحقيقِ المقاصِد بالرِّفق والإقناعِ والموعظةِ الحسنة.

ثانيا: الأسباب الإدارية والإعلامية:

وتتمثل في ما يلي:

1) عدم اهتمامِ كثيرٍ من العلماءِ الأفاضِلِ بالنواحي الإدارية والإعلامية، وبُعْدُهم عن مواقعِ التأثيرِ الإعلامي والقيادة الاجتماعية؛ مما قلَّلَ من نُفُوذِهم وخِبْرَتِهم الإعلامية وقُدرتِهم الاجتماعية على التغيير.

2) غِياب التخطيطِ العِلمي والاستراتيجي في مجالِ العملِ العلمي والدعوي. فلو توفَّرَ التخطيطُ العِلمي والتربوي؛ لكان مِن أهمِّ الأهدافِ الموضُوعة والمصالِح المرجُوَّة: إعدادُ قياداتٍ عِلميةٍ تنهضُ بالمجتمعاتِ المسلِمة على بَصِيرةٍ ووِفْقَ خُطَّةٍ عِلْمِيةٍ واضِحة.

3) ضَعف الوعيِ الإداري والقناعةِ بدورِ إعدادِ القياداتِ الفكرية والرُّموز العِلمية في إحداثِ النهضةِ السياسية والاجتماعية المنشُودة.

4) قِلةُ تعاوُنِ العلماءِ وغِيابُ فِقهِ التناصُحِ بين المؤسَّساتِ الإسلامِية ـ على اختِلافِ الجماعاتِ الدَّعوِيةِ العامِلة ـ وعدم انتباهِهم إلى فوائدِ التنسِيقِ فيما بينَهم وثَمَراتِ توزيعِ الأعمال حسب التخصص والكفاءة.

5) عدمُ عنايةِ كثيرٍ من العلماء والدُّعاة بتقييم تجربتِهم العلمية؛ لتصحيح الأخطاء واجتنابِ الوقوع فيها من جديدٍ، وقد روى أَبِو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: (لا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ).[9] وترجَمَ البخاري رحمه الله: في كِتَاب الأَدَبِ [بَاب (لا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ) وَقَالَ مُعَاوِيَةُ: لا حَكِيمَ إلا ذُو تَجْرِبَةٍ)].[10] وقد سئل أحمد رحمه الله عن معنى قولِ النبي ﷺ: (لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين)؟ فقال: "إن يقع مرةً في ذنبٍ لا يعود فيه".[11] وقَالَ الْخَطَّابِيُّ رحمه الله: "أَيْ لِيَكُنْ الْمُؤْمِن حَازِمًا حَذِرًا لا يُؤْتَى مِنْ نَاحِيَة الْغَفْلَة فَيُخْدَع مَرَّة بَعْد أُخْرَى، وَقَدْ يَكُون ذَلِكَ فِي أَمْر الدِّين كَمَا يَكُون فِي أَمْر الدُّنْيَا وَهُوَ أَوْلاهُمَا بِالْحَذَرِ".[12] وقال ابن حجر رحمه الله: "فِيهِ تَحْذِير مِنْ التَّغْفِيل، وَإِشَارَة إِلَى اِسْتِعْمَال الْفِطْنَة. وَمَال أَبُو عُبَيْد إلى أنَّ مَعْنَاهُ: لا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ إِذَا نُكِبَ مِنْ وَجْه أَنْ يَعُود إِلَيْهِ...[13]

---

[9] صحيح البخاري 98/19، حديث 5668.

[10] صحيح البخاري 97/19.

[11] طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى 47/1.

[12] نقله ابن حجر في فتح الباري 321/17.

[13] قال ابن حجر: "وَهَذَا هُوَ الَّذِي فَهِمَهُ الْأَكْثَر وَمِنْهُمْ الزُّهْرِيّ رَاوِي الْخَبَر، فَأَخْرَجَ اِبْن حِبَّان مِنْ طَرِيق سَعِيد بْن عَبْد الْعَزِيز قَال: "قِيلَ لِلزُّهْرِيِّ لَمَّا قَدِمَ مِنْ عِنْدَ هِشَام بْن عَبْد الْمَلِك: مَاذَا صَنَعَ بِك؟ قَالَ: أَوْقَى عَنِّي دَيْنِي ، ثُمَّ قَالَ: يَا ابْنَ شِهَاب تَعُود تُدَان؟ قُلْت: لا" وَذَكَرَ الْحَدِيث". وقد رواه الذهبي في سير أعلام النبلاء "قال سعيد بن عبد العزيز: قضى هشام عن الزهري سبعة آلاف

وقِيلَ: الْمُرَاد بِالْمُؤْمِنِ فِي هَذَا الْحَدِيث: الْكَامِل الَّذِي قَدْ أَوْقَفَتْهُ مَعْرِفَتُه عَلَى غَوَامِض الْأُمُور؛ حَتَّى صَارَ يَحْذَر مِمَّا سَيَقَعُ. وَأَمَّا الْمُؤْمِن الْمُغَفَّل فَقَدْ يُلْدَغ مِرَارًا".[14] وقال النووي رحمه الله: "مَعْنَاهُ: الْمُؤْمِن الْمَمْدُوحُ هُوَ الْكَيِّسُ الْحَازِم الَّذِي لَا يُسْتَغْفَل؛ فَيُخْدَع مَرَّة بَعْد أُخْرَى وَلا يَفْطِن لِذَلِكَ... وَفِيهِ: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِمَنْ نَالَهُ الضَّرَرُ مِنْ جِهَة أَنْ يَتَجَنَّبهَا لِئَلاَّ يَقَعَ فِيهَا ثَانِيَة".[15]

⊥ المطلب الثاني: نماذج عِلمية مُعاصِرة:

ونتناول أربعةَ نماذِجَ من القياداتِ العِلميةِ التي نجحَتْ في قيادةِ مجتمَعِها وتركَتْ أثراً عظيماً في تاريخِ الأُمة وحياةِ الناس: هي نموذج الشيخ ابن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين بالجزائر، والشيخ ابن عاشور مدير جامع الزيتونة ومفتي المالكية بتونس، ونموذج الأمير الخطابي الشيخ المجاهد في المغرب، والشيخ عمر المختار قائدين المجاهدين في ليبيا.

أ) نموذج ابن باديس:

فقد وُلد الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله سنة 1307هـ (1889م)، وتوفي سنة 1359 هـ (1940م).[16]

وهو "عبد الحميد بن مُحَمَّد المصطفى بن مكي بن باديس، رئيس جمعية العلماء المسلمين بالجزائر. ولد في قسنطينة، وأتم دراسته في جامع الزيتونة بتونس، وأصدر مجلة الشهاب، واشتغل بالسياسة وصارع الاستعمار الفرنسي، واضطُهِدَ وأُوذِيَ، وتُوفي بقسنطينة. له تفسير القرآن الكريم".[17]

ويُلاحَظ في تجربةِ عبد الحميد بن باديس رحمه الله في الجزائر أمورٌ:

أولها: دَوْرُ الأُسرةِ التي تُعْنَى بالعِلمِ والدِّين في تكوينِ العلماء وتربيةِ الدُّعاة؛

وذلك بِغَرسِ محبةِ القرآن والسُّنةِ والعلومِ الشرعية والآدابِ العربية في قُلوبِ الناشئة، وحُسنِ

دينار، وقال: لا تعد لمثلها تدان، فقال: يا أمير المؤمنين، حدثني سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة: قال رسول الله ﷺ: (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين)" سير أعلام النبلاء 5/ 340.

[14] فتح الباري لابن حجر 17 /321.

[15] شرح النووي على مسلم 9/ 381.

[16] وفي معجم المؤلفين لعمر كحالة 105/5: عبد الحميد بن باديس (1305 – 1359 هـ) (1887 – 1940 م).

[17] المرجع السابق.

تربيتِهم، وتوفير الشروط الْمُساعِدة على نبوغِهم ورُسُوخِهم في العلم؛ فقد حفظَ القرآنَ وهو في الثالثة عشرة من عمره، وتعلَّم مبادىء العربية والعلوم الإسلامية على يد الشيخ "أحمد أبو حمدان الونيسي" بجامع سيدي مُحَمَّد النجار، ثم سافر إلى تونس في سنة (1326هـ/ 1908م) وانتسب إلى جامع الزيتونة؛ مما فتح له أبوابَ العِلمِ النافعِ على مِصْراعَيه.

ثانيها: أثرُ القُدْوةِ وصُحبةِ العُلماءِ في تكوينِ القياداتِ العلمية:

فقد تلقَّى ابنُ باديس العلومَ الإسلامية على جماعةٍ من أكابر علماء الزيتونة، أمثال العلامة مُحَمَّد النخلي القيرواني المتوفى سنة (1342هـ/ 1924م)، والشيخ مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، الذي كان له تأثيرٌ كبيرٌ في التكوين اللغوي لعبد الحميد بن باديس، والشغف بالأدب العربي، والشيخ مُحَمَّد الخضر الحسين، الذي هاجر إلى مصر وتولى مشيخة الأزهر. وبعد أربع سنوات قضاها ابن باديس في تحصيل العلم بكل جدّ ونشاط، تخرج في سنة (1330هـ/1912م) حاملاً شهادة "التطويع" ثم رحل إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، كما اتصل بعددٍ من علماءِ مصرَ والشام، وتتلمذ على الشيخ حسين أحمد الهندي الذي نَصَحَه بالعودة إلى الجزائر واستِثْمار عِلْمِه في الإصلاح؛ إذْ لا خيرَ في عِلمٍ لا ينفَعُ الناسُ، فعاد إلى الجزائر، وفي طريقِ العودة مرَّ بالشام ومصر واتصل بعلمائهما، واطَّلَعَ على أوضاعِهم الاجتِماعية والثقافِيةِ والسياسية؛ مما وَسَّعَ مَدارِكَه وزاد مِن وَعْيِه بأساليبِ الإصلاح. فقد انتَفَعَ ابنُ باديس بِصُحْبةِ العُلماءِ ونَصائحِهم وتجارِبِهم في أعمالِه الإصلاحية.

ثالثها: قناعة ابن باديس بأنَّ الإصلاحَ يبدأ بالتربية والتعليم:

فتلك هي الوظيفةُ التي بُعِث بها النبِيُّ ﷺ ووَرَّثَها من جاء بعده من المصلِحِين، كما قال الله عزَّ وجل: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ)،[18] وقال جلَّ جلاله: (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ

18 الجمعة 2.

تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ)،[19] وقال تعالى: (لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ).[20]

وقد جعلَ النبيُّ ﷺ الدعوةَ الإسلامية قائمةً على أساسِ التربيةِ والتعليم، وعدَّ (الهدى والعِلمَ) غَيثاً نافِعاً يُحيِي القُلوبَ والعُقولَ، كما روى البخاري ومسلم عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ[21] فَأَنْبَتَتْ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتْ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً وَلا تُنْبِتُ كَلأً؛ فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ).[22]

فقد عمل عبد الحميد بن باديس رحمه الله على نَشْرِ التعليمِ الإسلامي في الجزائر؛ حتى ختَمَ تفسيرَ القرآنِ بالجامع الأخضر بقسطنطينة بعد خمسة وعشرين عامًا، فاحتفلت الجزائر بختم هذا التفسير في الثالث عشر من ربيع الآخر سنة 1357هـ (12 من يونيو 1938م).

رابعها: دَعْوَتُه إلى العودةِ بالإسلام إلى مَنابِعِه الأولى وتطهيرِ العقائدِ والأفكارِ

من الأوهامِ والأباطيلِ التي علقت بها، ومُحارَبة الفِرَقِ الضالَّة التي نشَرتْ الخرافات وأعانت المستعمر. وهذا من توفيقِ الله عزَّ وجل لابن باديس؛ فالإصلاحُ لا يتحقق إلا بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة، كما قال عزَّ وجل: (ومَن يُؤْتَ الحكمةَ فقد أُوتِيَ خيرًا كثيراً).[23]

ورَحِمَ الله السعدي حيث قال: "كمالُ العبدِ مُتَوَقِّفٌ على الحكمة؛ إذْ كَمالُه بتكمِيلِ قُوَّتَيْه: العِلْمية والعَمَلِية.. وبذلك يتمكَّنُ من الإصابةِ بالقَولِ والعَملِ وتَنزِيلِ الأُمُورِ مَنازِلَها في نَفسِه وفي غيرِه، وبدون ذلك لا يُمْكِنُه ذلك".[24]

---

19 البقرة 151.

20 آل عمران 164. وقال الخليل عليه السلام: (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ). البقرة 129.

[21] وفي روايةٍ لمسلم: (فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ)، صحيح مسلم 395/11، حديث 4232. كِتَاب الْفَضَائِلِ، بَاب (بَيَانِ مَثَلِ مَا بُعِثَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ).

22 رواه البخاري في كتاب العلم. باب (فضل من علِم وعلّم). فتح الباري 236/1. حديث 77.

[23] البقرة 269.

24 تيسير الكريم الرحمن لعبد الرحمن السعدي، ص 115.

خامسها: عِنايتُه بتربيةِ الشباب وتعليمِهم؛ حيث لم يقتَصِرْ على تعلِيمِ الكِبار، بل عَمَدَ ابنُ باديس رحمه الله إلى تعليمِ الصِّغار بعد خُرُوجِهم من كتاتِيبِهم. ثم أسَّسَ بعد بضعِ سنواتٍ مع جماعةٍ من أصحابه مكتبًا للتعليم الابتدائي في مسجد سيدي بومعزة، ثم انتقل إلى مبنى الجمعية الخيرية الإسلامية التي تأسست سنة (1336هـ/1917م)، ثم تطوَّر المكتب إلى مدرسة جمعية التربية والتعليم الإسلامية التي أنشئت في (رمضان 1349هـ/1931م) وتكونت هذه الجمعية من عشرة أعضاء برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس[25] رحمه الله تعالى.

ب) نموذج ابن عاشور رحمه الله:

وُلِدَ الشيخ مُحَمَّد الطاهر بن عاشور بتونس سنة 1296هـ/1879م وتوفي سنة 1393هـ/1973م.

وهو "مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس، مولده ووفاته ودراسته بها. عُيِّن (عام 1932) شيخاً للإسلام مالكيا.

وهو من أعضاء المجمَعَيْن العربِيَّيْن في دمشق والقاهرة. له مُصنَّفاتٌ مطبوعة، من أشهرها (مقاصد الشريعة الاسلامية) و(أُصُول النظام الاجتماعي في الاسلام) و(التحرير والتنوير) في تفسير القرآن، و(الوقف وآثاره في الاسلام) و(أصول الإنشاء والخطابة) و(موجز البلاغة) ومما عُنِيَ بتحقيقه ونشرِه (ديوان بشار بن بُرْد) أربعة أجزاء، وكتَبَ كثيراً في المجلات، وهو والد مُحَمَّد الفاضل بن عاشور".[26]

ويُلاحَظ في تجربةِ الشيخ مُحَمَّد الطاهر بن عاشور رحمه الله ما يلي:

أولا: أثرُ الأسرة العلمية العريقة في نشأته ونبوغه. وقد سبقَت هذه الملاحظة في نموذج ابن باديس رحمه الله؛ فالأسرةُ هي المحضَن التربويُّ الأولُ (والبلدُ الطيّبُ يخرُجُ نباتُه بإذنِ ربِّه والذي خَبُثَ لا يخرجُ إلا نَكِداً).[27] وقد قال ابنُ عاشور رحمه الله في تفسير قولِ الله عزَّ

---

25 راجع (ابن باديس: الإسلام ديننا والعربية لغتنا)، (في ذكرى ميلاده: 11 ربيع الآخر 1307هـ)، سمير حلبي.

[26] الأعلام للزركلي 6/174.

[27] الأعراف 58.

وجل في مريم عليها السلام: (وكانت من القانِتين):[28] "المراد بالقانتين: المكثِرُون من العبادة. والمعنى: أنها كانت سَلِيلةَ قومٍ صالحين، أي: فجاءت على طريقةِ أُصُولِها في الخيرِ والعَفاف! وهل يُنْبِتُ الخَطِّيَّ إلا وَشِيجُهُ!"[29]

ثانيا: نلاحِظُ أنَّ ابنَ عاشُور رَحِمَه الله دخلَ بابَ الإصلاح من بابِه الكبير:

وهو باب التعليم؛ فالتعليم قَمِينٌ بِتَصحِيحِ المفاهِيمِ وغرسِ القِيَمِ الإسلامية، وإعدادِ قياداتِ المستقبَل؛ فإذا صلُحَ التعليمُ تحقَّقت النهضةُ العلمية والتنميةُ الاجتماعية؛ ولذلك كان مِن أعظمِ أعمالِ ابنِ عاشُور: إصلاحُ التعليمِ في الزيتونة والصادِقية، وقد شَهِدَ بذلك مُحَمَّد عبده رحمه الله فقال: "إنَّ مُصلِحي الزيتونة سبقونا إلى إصلاحِ التعليم؛ حتى كان ما يجرُون عليه في جامع الزيتونة خيرًا مما عليه أهلُ الأزهر".[30]

ثالثا: عنايةُ ابن عاشور رَحِمَه الله بكتابة المؤلَّفاتِ القيّمة التي انتفعَ بها الناس في العالم الإسلامي، خاصة تفسيره القيِّم (التحرير والتنوير).

رابعا: حِفاظُه على هَيبةِ الفتوى واستِقْلالِها، وصَدْعُه بالحق، ومِن مَواقِفِه الجليلةِ المشهُورة رحمه الله: رَفضُه إصدارَ فتوى تُبِيحُ للتونسِيّين الفِطْرَ في رمضان، وكان ذلك عام (1381هـ/1961م) عندما دعا الرئيسُ التونسي السابق "بورقيبة" العُمَّالَ إلى الفِطر في رمضان بدعوى زيادة الإنتاج، وطلب من الشيخ ابن عاشور أنْ يُفْتِيَ في الإذاعة بما يوافق هذا، لكنَّ الشيخَ صرَّحَ في الإذاعة بما يريده الله تعالى، بعد أن قرأ آية الصيام، وقال بعدها: "صَدَقَ الله وكذب بورقيبة"! فخمد هذا التطاوُلُ المقيت وهذه الدعوة الباطلة بفضلِ مقولة ابن عاشور.[31]

ج) نموذج الأمير الخطابي رحمه الله:

---

[28] (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ). **التحريم 12.**

[29] **التحرير والتنوير 15 / 194. والشعر لزهير من أبياته السائرة:**

سَعَى بَعْدَهُمْ قَوْمٌ لِكَيْ يُدْرِكُوهُمْ فَلَمْ يَفْعَلُوا وَلَمْ يُلَامُوا وَلَمْ يَأْلُوا

وَمَا يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ!

وَهَلْ يَحْمِلُ الْحَطِّيَّ إِلَّا وَشِيجُهُ وَتُغْرَسُ إِلا فِي مَنَابِتِهَا النَّخْلُ!

[30] **الطاهر بن عاشور: صدق الله وكذب بورقيبة، مصطفى عاشور.**

[31] **الطاهر بن عاشور: صدق الله وكذب بورقيبة، مصطفى عاشور.**

وقد وُلِدَ الأميرُ مُحَمَّد بن عبد الكريم الخطابي بالمغرب سنة 1299هـ (1881م)، وتُوُفِّيَ سنة 1382هـ (1963م).

وهو "مُحَمَّد بن عبد الكريم الريفي الخطابي: زعيم الثورة الريفية المعروفة باسمه في شمالي المغرب. وُلِد في بلدة (أجدير) قرب الحسيمة من الريف، في بيت علم وجهاد، من قبيلة ورياغل إحدى كبريات القبائل البربرية في جبال الريف. وحفظ القرآن وبعث به والده إلى (القرويين) بفاس، فتعلَّمَ وعاد إلى الرِّيف وأقام في (مليلة) فولي قضاءها. وامتد احتلالُ الإسبان من مليلة وتطوان إلى (شفشاون) فأظهر عبد الكريم ـ والد الخطابي ـ معارضته لهم، وكان من أعيان القوم؛ فانتقم الإسبان منه بعزل ابنِه مُحَمَّد واعتقاله في سجن (كبالرزا) سنة 1920 وأراد (مُحَمَّد) الفرار من المعتقل فسقط وكسرت ساقه. وأطلق، فجمع أنصارا من ورياغل (قبيلته) وقد آلت إليه زعامتُها بعد أبيه، وقاتل الإسبان، فظفر في معركة (أنوال) من جبال الريف، في يوليو 1921 (أواخر 1339 هـ) وتتابعت معاركُه معهم فاحتل شفشاون (1925) وحاول احتلال تطوان وأرسل مَن يُهَدِّد (تازة) وقُدِّر جيشُه بمئة ألف. وأنشأ جمهورية الرِّيف وخاف الفرنسيون امتدادَ الثورة إلى داخل (المغرب) فحالفوا الإسبان. وأطبقت عليه الدولتان، فاستسلم مضطرا إلى الفرنسيين في 25 مايو 1926 (12 ذي القعدة 1344) بعد أن وعدوا بإطلاقه، ولكنَّ هذا الوعد ـ كما تقول جريدة لوموند الفرنسية ـ لم يُوفَ به كما لم يُوفَ بالوعد لعبد القادر قبل خمس وسبعين سنة. ونفَوْه مع أخٍ له وبعض أقربائهما إلى جزيرة (رينيون) في بحر الهند، شرقي إفريقية حيث مكثوا عشرين عاما. وأريد نقلُهم إلى فرنسا (سنة 1947 م، 1366 هـ) فلما بلغوا (السويس) كان شبابٌ من المغاربة قد هيأوا لهم أسبابَ النزول من الباخرة فنزلوا واستقرُّوا في القاهرة وتوفي بها".[32]

ويُلاحَظُ في تجربةِ الأميرِ مُحَمَّد بن عبد الكريم الخطابي ما يلي:

أولا: انتِفاعُه بالمركز الاجتماعي لأسرتِه؛ مما يؤكد ما سبق في تجربتَيْ ابنِ عاشور وابن باديس؛ فقد وُلد الأمير الخطابي في بلدة أغادير لأبٍ يتولى زعامةَ قبيلة بني ورياغل أكبر قبائل البربر في بلاد الريف، فحفظ القرآن الكريم صغيرا، ثم أرسله أبوه إلى جامع القرويين

[32] **الأعلام للزركلي 6/216–217. وللدكتور جلال يحيى كتاب (عبد الكريم الخطابي) طبع بالقاهرة.**

بمدينة فاس لدراسة العلوم العربية والدينية، ثم التحق بجامعة سلمنكا بأسبانيا، فحصل منها على درجة الدكتوراه في الحقوق، ثم عُيِّنَ قاضِياً بمدينة مليلة التي كانت خاضعة لأسبانيا.[33]

ويلاحظُ ثانيا أثرُ هذا الوعيِ الجامع بين العلوم الشرعية والثقافة العصرية في نجاحِ ثورة الخطابي وجهاده ضد الأسبان؛ حتى تكالب عليه الفرنسيون والأسبان؛ فتمَّ نَفْيُه، ولكنَّ أثرَه كان بالغاً في بلادِ المغرب (وأما ما ينفَعُ الناسَ فيَمكُثُ في الأرض).[34]

د) نموذج عمر المختار:

وُلِد عمر المختار رحمه الله بليبيا سنة 1274هـ (1861م)، وتوفي سنة 1350هـ (1931م).[35]

وهو "عمر بن مختار بن عمر المنفي: أشهر مجاهدي طرابلس الغرب في حربهم مع المستعمرين الإيطاليين، نِسْبَتُه إلى قبيلة "المنفة" من قبائل بادية برقة. ولد في البطنان (ببرقة) وتعلَّمَ في الزاوية السنوسية بالجغبوب، وأقامَه مُحَمَّد المهدي الإدريسي شيخاً على "زاوية القصور" بالجبل الأخضر بقرب المرج. وسافر معه إلى السودان سنة 1312 هـ، فأقيم بها شيخا لزاوية "كلك" إلى سنة 1321 هـ وعاد إلى برقة شيخاً لزاوية القصور، فأقام إلى أن احتل الإيطاليُّون مدينة بنغازي (سنة 1329 هـ) فكان في طليعة الناهضين للجهاد. وطالت الحرب، وتتابعت المعارك، ومنطقة المختار ثابتة منيعة. وتهادن الإيطاليون والطرابلسيون سنة 1340 هـ ودبَّ الخلافُ في زعماء طرابلس وبَرْقة، وتجددت المعركة مع الإيطاليين، ونفض الأدارِسةُ يَدَهُمْ منها، فتولى عمر قيادة "الجبل الأخضر" وتلاحقت به القبائل، واتفق الرؤساء على أنْ يكونَ القائدَ العام والرئيسَ الأعلى لِلمُجاهِدِين. وهاجمتهم القوى الايطالية، فردوا هجومها، وغنموا منها آلات حربية ومؤنا غير قليلة. وأشهر ما نشب من المعارك معركة

---

33 راجع: الخطابي أمير ثائر ودولة ناشئة، (في ذكرى معركة أنوال: 25 شوال 1339هـ)، مصطفى عاشور.

34 الرعد 17.

35 وفي الأعلام للزركلي 65/5: عمر المختار (1275– 1350هـ = 1858– 1931م)

"الرحيبة" و "عقيرة المطمورة" و"كرسة" وهي أسماء أماكن في الجبل الأخضر، نُسِبَت إليها تلك الوقائع. ويقول غراسياني Graziani القائد العام الايطالي في بيان له عن الوقائع التي نشبت بين جنوده والسيد عمر المختار: إنها "كانت 263 معركة في خلال عشرين شهرا" هذا عدا ما خاضه المختار من المعارك في خلال عشرين سنة قبلها. وبينما هو في سرية من رجاله، نحو خمسين فارسا، بناحية "سلنطة" بالجبل الأخضر، يستكشف مواقع العدو، فوجئ بقوة إيطالية أحاطت به، فقاتلها، واستشهد أكثر من معه، وأصيب بجراح، وقتل جواده، فانقضَّ عليه بعض الجنود فأسروه، وهم لا يعرفون من هو. ثم عُرِّف وأرسل إلى سوسة، ومنها أركب الطراد "أوسيني" إلى بنغازي. وسجن أربعة أيام. وسئل عن أعماله فأجاب بالإيجابِ غيرَ هَيَّابٍ، فقُتِلَ شنقا في مركز "سلوق" ببنغازي. وأخباره كثيرة، بعضها مُدَوَّنٌ. وممن رثاه الشاعران شوقي ومطران".[36]

أولا: يُلاحَظُ في تجربةِ عُمرَ المُختار رَحِمَه الله دَوْرُ أُسْرَتِه الحريصة على تعلِيمِه في إعداده وصُحْبَتِه للعلماءِ؛ ليكون من أعظم قياداتِ المجتمع الليبي.

وقد عهد به أبوه إلى السيد حسن الغرياني شيخ زاوية جنزور (التابعة للطريقة السنوسية) لتربيته وتحفيظه القرآن، وعند وفاة الوالد عام 1878 في رحلة الحج أوصَى مَن حولَه بأنْ يرعَى هذا الشيخُ أولادَه من بعدِه، فقام الشيخ حسن الغرياني بما عهد إليه خير قيام.

وثانيا: يُلاحَظ أثرُ العلم في تكوين القيادات:

فقد قام الشيخ حسن الغرياني بإرسال عمر المختار وله ستة عشر عاما إلى معهد زاوية الجغبوب مع أولاده؛ ليتعلمَ في هذا المعهد السنوسي كافة العلوم الشرعية، فتلقى القرآنَ وعلومَه على يد الشيخ الزروالي المغربي، ودرس على سائر مشايخ المعهد مجموعةً من العلوم الشرعية وغيرها، وقد كان نَهْجُ التعليم في المعهد يعتمد على أن يقوم الدارس بأداء بعض المهن اليدوية مثل: النجارة والحدادة، وقد تميز عمر المختار في هذه الحِرَف وفي ركوب الخيل على سائر إخوانه بالمعهد، وتميز أيضًا بشخصيتِه القيادية واتزانِ كلامِه، مع تواضُعِه وبساطته،

[36] **الأعلام للزركلي 5/65–66. وكتاب "عمر المختار للسيد احمد محمود، طبع مصر سنة 1353 هـ.**

وقد ساعدت صِفاتُه على توسيع دائرة اتصالاته واكتسابِ حبِّ كل من تعامل معهم وتقديرهم من خلال المهام الكثيرة التي قام بها، وقد انقطع عمر المختار عن مواصلة تعليمه حوالي سنة 1886، وذلك بسبب إحساسه بأن وطنه وقومه في حاجة إلى عمله وجهاده.

ثالثا: أنَّ الجهاد ضد المستعمر ثمرة الغرس الطيّب:

فقد قاد عمر المختار المجاهدين في ليبيا، ووفقه الله عز وجل أن يُلْحِقَ بالإيطاليين خسائرَ فادِحة وضرباتٍ مُوجِعة، كما استطاع أن يُلْفِت أنظارَ العالم إلى قضيَّتِهم، وقد سَعَت إيطاليا بكلِّ قُوَّتِها وجَبروتِها إلى تصفية عمر المختار ورفاقه، حتى نجحت في أسره في 28 من ربيع الآخر 1350هـ (11 من سبتمبر 1931م) بعد أن أصيب فرسه، وسقط على الأرض جريحًا، وبعد محاكمة صورية سريعة لم تدم أكثر من ساعة، صدر الحكم بإعدامه، وتم تنفيذ الحكم في صباح الرابع من جمادى الأولى سنة 1350هـ (16 من سبتمبر 1931م) أمام جمهور غفير من أبناء البلاد، سيقوا قسرًا ليشاهدوا عملية إعدام شيخ المجاهدين الذي كان عمره قد تجاوز الثمانين. ولكن جذوة الجهاد لم تنطفئْ إلى نهايات الحرب العالمية الثانية (1358هـ/1939م إلى 1364هـ/1945م) حتى تم خروج آخر جندي إيطالي من ليبيا في (19 من المحرم 1362هـ/25 من يناير 1943م).[37]

والخلاصة: أنه يُستفاد من هذه النماذج العِلمية المعاصِرة: (ابن باديس في الجزائر، وابن عاشور في تونس، والخطابي في المغرب، وعمر المختار في ليبيا) أنه لا صلاحَ لِلفَردِ ولا لِلمُجتمعِ إلا بالتربية والتعليم، والدعوة الحكيمة وإعدادِ قادةِ المجتمع من العلماء الربانيّين والدعاةِ الموفَّقِين.

وثانيا: أنَّ الأسرةَ الصالحِة هي اللَّبِنةُ الأُولى في إعدادِ العلماء الذين يكونون قُدوةً للناسِ وقادةً لهم.

وثالثا: أنَّ النهضةَ الإسلامية لا تتحققُ في مُجتَمعاتِنا إلا إذا وُجِدت القيادات العلمية الصادقة العامِلة على تنميةِ مجتمعاتِها المسلمة على بصيرةٍ.

⊥ المطلب الثالث: الأمة وإشكالات غياب الرموز العلمية.

37 الفاشية تحتل ليبيا، (في ذكرى احتلال ليبيا: 11 من شوال 1329هـ)، سمير حلبي.

أ) أدَّى غِيابُ القيادات العِلمية في إدارةِ مجتمعاتِنا المسلمة إلى أن يُملأَ هذا الفراغُ بقياداتٍ ليس لها كفاءةٌ عِلميةٌ ولا إداريةٌ، وليس لها ـ في كثيرٍ من الأحيان ـ قَبولٌ اجتِماعي، كما تَنقُصُها الأمانةُ والورَعُ وليس لها من بضاعة إلا الولاء الحزبي والسياسي. وهذا مُشاهَدٌ في كثيرٍ من الدولِ الإسلامية. والله المستعان.

ب) لقد أحدثَ غِيابُ القياداتِ العِلمية هُوَّةً حالَتْ بين العلماءِ وبين قيادةِ المجتمع وإدارةِ مؤسَّساته؛ فالملاحَظ في مجتمعاتِنا العربيةِ أنَّ من تقدَّمَ الصُّفوفَ ـ ولو لم يكُنْ له كفاءة ـ قُدِّم ليقودَ الناس بمشرُوعِه؛ وهذا سِرُّ تَسَلُّقِ التجاربِ القومية والاشتِراكية والعلمانية في العالم الإسلامي؛ فقد تقدَّمَ أصحابُها في غيابِ مُنافَسةِ العلماء على مواقِعِ التأثيرِ والقرار؛ فصاروا بإقدامِهم ومُبادرتِهم قادةً للناسِ في سياستِهم واجتماعِهم ومكَّنُوا لمشاريعِهم بالتحالُفات السياسية حيناً من الدهر. وهذه عبرةٌ لأهلِ العلمِ والدعوةِ؛ فهم المؤتمنون على قيادةِ الناسِ وهدايتِهم.

ج) لقد تسبَّب غيابُ الرُّموزِ العلمية في انحِسار دورِ العلماء اجتماعياً وسياسياً ليقتصر ـ في الغالب ـ على أوساطِ المتديّنين ورُوَّادِ المساجد؛ مما جعلَ كثيراً من العُلماءَ في العالَمِ الإسلامي بِمَعزِلٍ عن قوى التأثيرِ الاجتماعي ومراكزِ اتخاذِ القرار السياسي!

د) إنَّ تقصيرَ بعضِ العلماءِ في بناءِ مؤسَّساتِ المجتمَع وإصلاحِها تعليمِياً واجتماعِياً وسياسياً؛ جعلَ منهَجَ العلماءِ يكتفي غالِباً بِرُدُود الأفعالِ وما يُشْبِهُ سِياسةَ إطفاءِ الحرائق، وأما السَّبقُ إلى صِناعةِ القادةِ والإصلاحِ السياسي والإعلامي وأخذُ المبادَرات الاجتماعية الإصلاحيةُ فأقلُّ من القليل.

⊥ المطلب الرابع: الأمة وآليات صناعة الرموز والقادة:

أ) من الناحية الإدارية والإعلامية:

1) حُسْنُ اختيار من يُرَشَّحُ من طلبةِ العلمِ ليكون من (القيادات العلمية للمجتمع)، واستِحْضار حديثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ قال: (النَّاسُ مَعَادِنُ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإسلامِ إِذَا فَقِهُوا)،[38] وفي روايةٍ: (تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ: خِيَارُهُمْ فِي

[38] صحيح البخاري 176/11، حديث 3131. كتاب التفسير، بَاب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ}، ومطلع الحديث: (سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ قَالَ أَتْقَاهُمْ لِلَّهِ قَالُوا لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ قَالَ فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ قَالُوا لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ قَالَ فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي...).

الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلامِ إِذَا فَقِهُوا وَتَجِدُونَ خَيْرَ النَّاسِ فِي هَذَا الشَّأْنِ أَشَدَّهُمْ لَهُ كَرَاهِيَةً، وَتَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلاءِ بِوَجْهٍ وَيَأْتِي هَؤُلاءِ بِوَجْهٍ).[39] وروى البخاري عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (إِنَّمَا النَّاسُ كَالْإِبِلِ الْمِائَةِ لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً)،[40] وفي روايةٍ لمسلم: (تَجِدُونَ النَّاسَ كَإِبِلٍ مِائَةٍ لَا يَجِدُ الرَّجُلُ فِيهَا رَاحِلَةً).[41]

2) تربية طَلَبةِ العِلم ـ المرشَّحِين لقيادةِ المجتمَع ـ على خِدمةِ الناسِ ورِعايَتِهم وبذلِ المعرُوفِ إليهم؛ ليكونوا رحمةً لأُمَّتِهم.

3) وَضعُ معايِيرَ عِلْميةٍ وتربويةٍ لهذا الاختِيار؛ حتى لا يُرَشَّحَ من ليس له صِدقٌ في خِدمةِ الدعوةِ ورِعاية الناس؛ فيكون مشرُوعَ فِتنةٍ للناسِ كما هو مُشاهَدٌ في بعضِ القِياداتِ الإسلامية التي فتنَت مجتمعَها بالفتاوى المشبوهة والمصالح الموهومة. ولنا في السودان تجربةٌ مريرةٌ والله المستعان.

4) مُراعاة التوازُن في التمكُّنِ من العُلوم الإسلامية وحُسن الاطلاع على العلوم العصرية.

5) إقامة دوراتٍ مُكثَّفة للقياداتِ المرشَّحة في الإدارة والإعلام والعلوم المعاصرة.

6) الاستفادة من بعض التجارب الإسلامية (مثل تجربة الكويت في تكوين القيادات)، مع العمل على التقييم السنوي.

7) الدعوة لإقامةِ مؤسَّسةٍ خاصةٍ بتكوينِ القياداتِ الإسلامية وتدريبها ورعايتها، (على نَمطِ معهدِ تأهيلِ العلماءِ في موريتانيا على سبيل المثال).

8) اعتِماد إدارةٍ توجيهٍ عِلميةٍ راشِدةٍ (من أمثال العلامة الددو)؛ لإنجاحِ هذه التجربة.

9) توحِيدُ المناهجِ الدراسية في مؤسَّساتِ تكوينِ القيادات الإسلامية.

10) اعتِمادُ وَقفٍ لضمانِ ميزانياتِ تَسْيِيرٍ سنوية.

ب) من الناحية العلمية:

---

[39] صحيح البخاري 314/11.، حديث 3234. كتاب المناقب. وفي رواية مسلم، كِتَاب فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ، بَاب خِيَارِ النَّاسِ: (قَالَ: تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ فَخِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا وَتَجِدُونَ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ فِي هَذَا الْأَمْرِ أَكْرَهُهُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ فِيهِ وَتَجِدُونَ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ). صحيح مسلم 341/12، حديث 4588.

[40] صحيح البخاري 151/20، حديث 6017. بَاب رَفْعِ الْأَمَانَة.

[41] صحيح مسلم 384/12، حديث 4620. في (بَاب (قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسُ كَإِبِلٍ مِائَةٍ لَا تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً)

1) تربية العلماء (العامِلين) والقادة (المصلِحين).

2) الاهتِمام بالبناء الفِكري والسياسي.

3) إحياء قيمة القُدوات؛ وذلك بِرَبطِ القادة المرشَّحِين بكبارِ العلماء.

ج) من الناحية الاجتماعية:

1) تقوية العلاقة بين القادة المرشَّحِين وقضايا الأمة.

2) العِناية بِهَمّ الإصلاحِ الاجتماعي.

3) اعتِماد الخدماتِ الاجتماعية مجالاً للدعوةِ والإصلاح؛ فالخدمةُ العامةُ من أعظمِ أبوابِ القَبُول في المجتمع، وهي مِفتاحُ القُلوبِ والعُقول؛ فقد قالت خديجة ﵂ تُثْنِي على أنواعِ الخدماتِ الاجتماعية التي كان يُقدِّمُها النبيُّ ﷺ إلى الناسِ قبل الإسلام: (كلا والله ما يُخْزِيك الله أبداً؛ إنك لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المعدُوم، وتَقْرِي الضَّيفَ، وتُعِينُ على نَوائب الحق)![42]

خاتمة:

وقد كان للعلماءِ في السودان ـ بحمدِ الله عزَّ وجل ـ بعضُ التوفيقِ في الخدماتِ العلميةِ والاجتِماعية:

1) من حيث نبذُ الفُرقة والتنازُع بين الدُّعاة، وجمع كلمتِهم على ما ينفعُ الأمةَ ويحفظ هوِيَّتَها.

2) وتوعِيةُ المجتمَع السوداني بالدروس والكتب والدورات والمؤتمرات ووسائل الإعلام المتاحة.

3) بالإضافة إلى إقامةِ بعض المؤسَّسات التعليمية الخيرية (مثل منظمة المشكاة الخيرية)، والإعلامية في الصحافة (صحيفة المحرر، ومجلة اللواء بالتعاون مع وزارة الدفاع السودانية) والشبكة الدولية للمعلومات (شبكة المشكاة الإسلامية)، والإذاعة (إذاعة طيبة)، مع الإعدادِ لانطلاقِ بثِّ (قناة طَيبة) الفضائية إن شاء الله بإشرافِ بعضِ العلماءِ والدُّعاة.

---

42 رواه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.حديث 3، وأطرافه: [3212، 4670، 4672 – 4674، 6581].

وهذه المشاريعُ الاجتِماعية في السودانِ قد مَكَّنَت العُلماءَ ـ بِعَوْنِ الله وفَضلِه ـ مِن أداءِ بعضِ الواجبِ في التوجِيه العلمي والإصلاحِ الاجتماعي والسياسي. نسأل الله عزَّ وجلَّ المزيدَ مِن فضلِه وتوفيقِه وعَونِه جلَّ جلاله.

وهذه التجربة السودانية تؤَكِّد كذلك ثَمرةَ الأخذِ بالتربيةِ والتعليم واعتِماد الخدماتِ الإعلامية والاجتماعية في قيادة المجتمع. والله الموفِّق، نِعْمَ المولَى ونِعْمَ النصير.

والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.